الاخير منه . مع ذلك لم اخرج بنتيجة واضحة ، بعد قراءة الكتاب ، حول طبيعة العلاقة بين التلمود والصهيونية كما يراهـا اسعد رزوق بناء علـى دراسته . يشير القسم الاخير من الكتاب الى علاقة من نوع ما بلا شك ، غير ان هذه الصيغة العامة جدا في اقرار العلاقة لا تفيدنا بشيء ولا تزيدنا علما بالموضوع . اي بما ان القسم الاخير من الكتاب لا يتعدى هذا الاطار العام جدا في مناقشة المسألة تظهر العلاقة (مهما كان نوعها) بين التلمـود والصهيونية من خلال نصوص الكتاب بمظاهر واهية وهزيلة وباهتة ، فهي موجودة احيانا ومفقودة في احيان اخرى ، هناك اشياء مضادة للصهيونية في صلب التلمود وهناك اشياء اخـرى تتساوق مع عقائدها السياسية الى آخر ذلك مـن الرجرجة التي لا تصل بنا الى اية نتيجة فيها شيء مـن الوضوح والحسم . يعود هذا الغموض والتردد، على ما يبدو لي ، الى عاملين : اولا ، افتقار الكتاب الى اية محاولة لتحديد طبيعة العلاقة التي نبحث عنها بين التلمود والصهيونية : هل هي علاقة احتواء وانحدار (احتواء التلمود علـى العقائد الصهيونية وانحدار الثانية من الاولى) ام علاقة تأثير افكار سابقة على أفكار انبثقت في وقت لاحق ، أم هي علاقة استخدام واستغلال بمعنى استغلال الصهيونية كحركة سياسية للافكار الدينية التلمودية واستخدامها لتحقيق مآربهـا ومطامعها المعروفة ؟ تبقى هذه التساؤلات معلقة في ذهن القارىء لان الكتاب لا يطرحهـا اصـلا للمناقشة والبحث . ثانيا ، المنهج التجزيئي الذي اتبعه مؤلف الكتاب في اثبات وجود هذه العلاقة او عدم وجودها . على سبيل المثال ينظر اسعد رزوق الى كتابات عدد مـن مفكري الصهيونيـة ومنظريها من امثال كاليشر وموسى هس وآحـاد هاعام وهيرتزل وبنسكر فيجد ان كاليشر وهس مثلا كانا متأثرين بلغة التلمود وتعابيره وافكاره بينما لا يجد اي اثر للتلمود في مؤلفات هيرتزل وبنسكـر وغيرهما من اتباع المدرسة . ان المقارنة الميكانيكية بين نصوص كاليشر من جهة والتلمود من جهة اخرى لا تثبت وجود علاقة عضوية وحقيقية بين الصهيونية والتلمود ، كما أن اية مقابلة مماثلة لمؤلفات هيرتزل مع التلمود لا تثبت وجدها انعدام وجود مثل هذه العلاقة . النقطة الاساسية التي يهملها اسعد رزوق في هذا الموضع هي أن كل حركة سياسية مرتبطة بجذور اجتماعية وطبقية صاعدة تاريخيا (كما كان وضع الصهيونية كحركة قومية مع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر) تعبر عن نفسها في بادىء الامر بواسطة أدوات التعبير الشائعة في الاوساط التي تتوجه الحركة اليها والاوساط التي انبثقت الحركة عنها ، الى ان تطور ، بعد فترة من الزمن ، اساليبها الخاصة في التعبير بما في ذلك تصوراتها ومفرداتها وشعاراتها وانفعالاتها المميزة لها . وعلاقة الافكار الصهيونية بالتراث اليهودي عامـة (بما في ذلك التلمود) لا تشذ عن هذه القاعدة العامة .

وبما ان الصهيونية كحركة تعكس وتمثل مصـالح اجتماعية وطبقية حية وراهنة وليس مصالح تلمودية ميتة وماضية ، فقد وجدت في التلمود والتوراة وكتب التاريخ والتراث اليهودي كله الادوات اللازمة لاعطاء نفسها البعـد التاريخي الذي يلزمهـا ، والشرعية الروحية التـي تحتاج اليها في بعض الاوقات والاماكن ، والوسائل الذهنية والعاطفية الضرورية لتعبئة من يهمهـا الحصول على تأييدهم ودعمهم . من هذه الزاوية يبدو لي ان ما توصل اليه اسعد رزوق هو مجرد الاقرار بوجود تأثيرات تلمودية في نصوص بعض مفكري الصهيونية وعدم وجودها عند البعض الاخـر ، وهذا لا يكفي على الاطلاق لاستكمـال البحث حول طبيعـة العلاقة القائمة بين الصهيونيـة والتلمود . المطلـوب في الواقع هو معالجة اكثر جذرية وصرامة للموضوع ودفع للبحث الى نتائج اكثـر وضوحا وصراحـة وحسما بناء علـى الاسس التي وضعهـا الكتاب نفسه . لقد فتح اسعـد رزوق الطريق واضـاء جوانب كثيرة منها بما قدمه من مادة غزيرة ، وأملنا هو ان يسير المزيد من الدارسين العرب التقدميين في الطريق التي فتحها ، واذا تمكن البعض منهم الذهاب الى ابعد مما ذهب هو لا شك ان جزءا كبيرا من الفضل يعود الى جهوده الرائدة .

ص. ج. ع.